نهر الفرات...

علامة.. لقدسية الماء في الموروثات

جاسم عاصي

ان قدسية المياه ومكانتها في الميثولوجيا قد تناولتها جميع الكتب المقدسة، باعتبارها المادة الاكثر عطاء للوجود والكون بعامة. ففي قصة الخليقة البابلية (أ ينو ما إ ليش)، كان الماء سيد التكون الاول، حيث ذكرت الملحمة في مستهلها ما يأتي: (حينما في الاعالي لم يكن بعد للسماء اسم / وفي الدنى لم تكن الارض بعد قد سميت باسم / حينما لم يكن قط عند (آبسو) المبدأ والاصل موجدهم والأم (تعامة) التي ولدتهم جميعاً / حينما كانت أمواهيهما لا تزالان تمتزجان معاً) (١)

وتتوازى معها قصة الخلق في العهد القديم، حيث يذكر (في البدء خلق الله السماوات والارض كانت خاوية خالية وعلى وجه الغمر ظلام، وروح الله يرف على وجه المياه) (٢). ويؤكد الكتاب المقدس للصابئة المندائيين على قدسية الماء كالآتي: (منذ السماء، انكشفت، والارض تكشفت، منذ النشماثا كونت موجة من الماء الحي نودين) (٣) أو (اهدأ ايها الماء الحي، اهدأ ايها الماء سر إلى الخراب منادياً بصوت الحي؛ كن باسم ياور، عوناً للنشماثا التي تضطهد. سيصبغون فيك صاغة حية، ستكون عوناً للحياة وستشفى بك الامراض والعاهات) (٤)، بينما نجد هذه القدسية والمكانة والتأثير في الوجود ضمن ما ذكره (أنكيدو) لـ (جلجامش)، وهو بصدد حلم راوده، ذاكراً بان الالهين (آنو وأنليل) يوزعان اللحم والماء كخدم في العالم الاسفل (٥)، بينما نرى ان السومريين كانوا يسكبون الماء إلى العالم الاسفل من خلال (مي نفو)، وهو طقس وشعيرة جنائزية، حيث يجري سكب الماء عبر انبوب فخاري لإرواء الموتى. (٦). وخير ما ختم هذا التقديس واكده، ما ذكره القرآن الكريم (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (٧). من هذا نرى ان للمياه قدسية واضحة. لاسيما في التكوين الاول للكون والوجود، اعتباراً من اسس نظرية النشوء والخلق. ففي الفقه الجعفري تأكيد على ان ثمة شراكة في الماء، فالناس شركاء فيه، لذا جاز الشرب من الانهار المملوكة، وان لم يأذن المالك. ويستحب مثلاً سقي الكفار الماء اذا كانوا عطاشى، كما في رواية الامام الصادق (ع). وتشترك ذوات الارواح في الحق بالماء كأن لكل ذات روح فيه حق.. (٨). كذلك ما كانت تحفل به الشعوب من معتقدات في اقامة الشعائر والطقوس على ضفة الانهار، وتوظيف مياه الانهار لمثل هذه الفعاليات. فالمياه الوسيلة والشاهد على مثل هذا المعتقد. وخير مثل على هذا؛ طقوس (المحية)، ونذور (الخضر) (ع) او أعياد سكب الماء عبر الغطاس، كما هو عند الصابئة المندائيين (٩). من هذا نجد ان التقديس قد شمل نظرة العلاقات المقدسة في الديانات السماوية، مستندة بذلك على النصوص، مذكرة بهذا بمبادئ هذه القدسية، بسبب العلاقة الوطيدة التي خلفتها العلاقات الانثروبولوجية، وفعاليات الناس لاقامة الصلة مع الله، من منطلق الاعتقاد بالوسيط، والحفاظ على هذه الشعيرة التي اتصلت مباشرة بالانهار والمياه. كما في طقوس التعميد عند الصابئة والمسيحيين. ومعتقد عدم دفن الموتى عبر الانهار لدى الصابئة. ونعتقد ان هذا المعتقد متأت من محاولة عدم خرق واجتياز المقدس، لاسيما حالة الرحيل إلى العالم الآخر. ولعل سفره عبر النهر كأنه يبتعد عن حاضنة الخلود نائياً بذلك عن عناية الرب. وهذا له علاقة بطقوس ووصايا الدخول إلى العالم الاسفل عند السومريين. فالاجتياز والعبور والمخالفة تعني النأي والنفي النهائي، وربما له دلالة اخرى في معتقدهم.

ان هذه القدسية شملت ايضاً المسميات او اصول الماء، حيث صنفت الانهار كما هي في ملحمة الخليقة البابلية في (تيامت وآبسو)، ونعني بها المياه العذبة والمياه المالحة. وفي الانهار من بعد ذلك تجسدت قدسية وخصائص كل منها. غير ان المتميز في الميثولوجيا؛ هو قدسية نهر الفرات. فالفرات في اللغة تعني - العذب - وقدسيته اتت عليها الكتب المقدسة ايضاً. فعلى ضفاف دجلة والفرات كانت تقام الطقوس، وتقدم القرابين. كذلك تقام على ضفافه شعيرات التطهير والتعميد. ثم ان (آيا وابن مردوخ) هما (إلها) ماء الحياة. ويأتي ذكر الماء الطاهر، ماء الفرات، الماء المختبئ في المحيط، قد طهره آيا الطاهر.. (١٠). فالفكرة الشعبية لتقديس الذات تتصل بتقديس نهر الفرات؛ لأن الاعتقاد يؤكد على انه احد اربعة انهار تنبع من الجنة هي: النيل.. سيحون.. جيحون. (١١). وكما اكده الامام علي (ع) بقوله مخاطباً اهل الكوفة.. ان لنهركم هذا يصب اليه ميزابان من الجنة.. لذا اكد (ابن حمزة الطوسي في - الوسيلة - على: من المستحب ان يحنك الطفل بماء الفرات.. (ص٣١٥). وهذا ايضاً ما اكده الشهيد الاول (محمد باقر الصدر) في كتابه - الدروس - ص ٣ - ٤٧)؛ كون الفرات يصب فيه ميزابان من الجنة، ويحنك بمياهه الولدان. وهناك تأكيد في بحار الانوار ج١ ص (٣٦).. على ان اربعة انهار من الجنة:

الفرات / الماء، والنيل / العسل، وسيحان / الخمر، وجيحان / اللبن. فهو بذلك سيد المياه والانهار في الدنيا والآخرة. وان ثمة نهرين مؤمنين ونهرين كافرين: نهرا (بلخ ودجلة) كافران، والمؤمنان النيل مصر والفرات، حنكوا اولادكم بماء الفرات. او على نحو.. يقطر في الفرات كل يوم قطرات من الجنة. او ان ملكاً يهبط كل ليلة معه ثلاثة مثاقيل مسك من مسك الجنة، فيطرحها في الفرات..

كل هذا يضيف قدسية للفرات كنهر من بعدما كانت الانهار والمياه الاساس في تشكل الوجود والكون. ان ما يشير اكثر إلى قدسية ماء الفرات؛ هو ارتباطه بواقعة الطف، واستشهاد الامام الحسين بن علي (ع) واصحابه على ضفافه. بل ان بانوراما الواقعة شهد عليها نهر الفرات، فتجسدت عبرة ودرساً تاريخياً. وكان بمثابة المتعلق الذي انتبه اليه الآخر. او تصرف باللاشعور فتجسد ذلك في منع وصول ماء الفرات ليطفئ ظمأ آل بيت الحسين. ثم ان على ضفافه كانت واقعة استشهاد الامام العباس (ع). هذا النهر غدا مسرحاً لحرب ضروس وبطولة واستشهاد فريدة من نوعها في التاريخ. اذ يبدو هنا نوع من استكمال صورة الاسطورة المرحلة من الواقع - واقعة الطف - باتجاه المتن الاسطوري. فالواقعة قد اسطرت الواقع، لما احتوته من خصائص وخوارق ومعجزات فاق فيها الواقع الخيال. وهذا واحد من بواعث الخلود للواقعة. اضافة إلى براعة الذات في السير إلى ملكوت الاستشهاد بوعي تام، من اجل رفعة الدين والمجتمع. من هذا يمكن التأكيد على ان الفرات كنهر مقدس. شهد الواقعة وأرخها. وهو من قبل ذلك شهدت بوجوده وبرفعته وقدسيته الكتب السماوية. فها هو كتاب (كنز ربا) يؤكد في ص٣٩ على: (هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم..؟) او ما اكده (سفر التكوين (٢ - ١٠): (اما النهر الرابع فهو الفرات). وبذلك كانت قدسيته مؤكدة حقيقتها من الكتب السماوية والوقائع؛ خاصة قدسية ومكانة واقعة الطف في التاريخ والمعتقدات. وسجلت الواقعة على ارض كربلاء عنواناً تاريخياً. اذ من الملاحظ ان الرمز على قدسية الماء في كربلاء؛ هي اقامة وتشييد (السقخانات) أو (ماء السبيل). وهو اسم فارسي، لأحواض يعد في داخلها الماء المثلج والصافي، حيث يستقبله الزوار بكؤوس وطاسات نظيفة ومجلوة، عبر حنفيات خاصة. وقد جرت العادة عند شرب الماء ان يذكر عطش الحسين وآل بيته بقولهم ((سلام الله على الحسين واصحابه)). وجاء ذلك تأكيداً لبيت شعري قاله الامام الحسين (ع):

(شيعتي مهما شربتم
عذب ماء فاذكروني)

وعن الامام الصادق (ع) قوله:) أني ما شربت ماء بارداً إلا ذكرت الحسين (ع)) - وهذا ما ذكره الشيخ جعفر التستري في خصائص الحسين - طبعة حجرية -. وكان طقس اقامة وتشييد (السقخانات)، استجابة لعطش الحسين (ع) في واقعة الطف، حيث برزت ظاهرة اشاعة شرب الماء بعد اعداده للناس في عام ٣٥٣هـ - ٩٦٣هـ، اذ ظهرت في شوارع بغداد ايام (معز الدولة البويهي)، فوضعت الجرار مغلفة باللباد في الشوارع والطرق لسقي ابن السبيل والعطشان.. (١٢). فالعطش يذهب باللب ويشتت الفكر، فهو يؤثر في اربعة من الجوارح الحسية: هي الشفة ذابلة من حر الظمأ، والكبد مفتت لعدم الماء، واللسان مجروح من شدة اللوك، والعين مظلمة من العطش. ولا انسى يوم روى لي شخص في عمق اهوار الجنوب وهو الشيخ (برغش) بسبب انتباهي على ضعف نظره، قال: شربت الماء دفعة واحدة من بعد عطش شديد دام زمناً، فقد دفعت الماء إلى جوفي بسرعة وقوة فغشيت عيناي وضعف بصري.. فالماء سيد الكون، وخصائصه تشهد بها المقدسات. والفرات خير ما يمثل هذا. فالامام الصادق (ع) شرب في يوم ما من ماء الفرات، ثم استزاد، واستزاد فحمد الله وقال: (نهر ما اعظم بركته ولو علم الناس ما فيه من البركة لضربوا على حافتيه القباب، ولولا ما يدخله من الخطائين ما اغتمس فيه ذو عاهة إلا برئ). وقد انسحبت هذه القدسية إلى حالة التبرك بالماء، ثم جرت شعيرات هي بمثابة دالات على المحذور، فمثلاً جرت العادة في عدم شرب الماء من اناء كان احدهم قد شرب منه، وهو امرؤ عزيز عليه، فهو اما ان يستبدله بماء جديد، او يسكب منه قليلاً للتخلص من تأثير النحس، ثم يشربه مطمئناً، لكي لا تحدث خلافات بين الاثنين. وبنفس ذلك جرت العادة في المجتمع الانكليزي؛ فانهم لا يسمحون بان يغتسل بعدهم احد بنفس الماء الذي اغتسلوا به، وإلا حدث بينهم عراك في اليوم نفسه.. (١٣).

من كل ما تقدم؛ كانت لنا وقفات على اهم المثابات التي تشهد على تقديس الماء والانهار، سواء كان ذلك من خلال ما حدد في الكتب المقدسة او من دروس السيرة للائمة ووثائق المؤرخين. اذ نرى ان هذا التقديس انسحب على الكثير من الفعاليات الانسانية. فالعقل الجمعي يشيد مفاهيمه عبر مدوناته الشعبية والتراثية، متخذاً من ضفاف الانهار اماكن لاداء الطقوس، لاسيما طقوس (المحية)، او نذور (الخضر (ع). فالفرات ودجلة نهران شهدا مثل هذه الشعيرات، كذلك انهار العالم، عاكساً معتقدات الشعوب ونشاطاتهم الاسطورية. غير ان الملفت للنظر ما يقام على ضفة نهر (الحسينية) المتفرع من نهر الفرات في مدينة كربلاء، وبالقرب من مقام الامام المهدي المنتظر (عج). حيث يجتمع الناس والاحبة من كل جنس، مختلفة اعمارهم متباينة مراميهم واسبابهم، يلبون حساً داخلياً ساكناً فيهم كالشعر او الموسيقى يهيئ كل واحد او واحدة زورقه الخشبي الصغير الذي يتسع لبعض الشموع واغصان الآس والحناء وبعضهم يتخذ من كرب النخيل المقدس زورقاً لأشيائه. فيبدو المنظر من بعيد او قريب خلاباً حيث تتلألأ ذبالات الشموع مضيفة على كتل الحناء وحبيبات الشعير ظلالاً وتوهجاً. زوارق من كرب او خشب تترك على سطح الماء عائمة تتهادى سائرة إلى حيث مبتغاها، إلى ما ارادها اصحابها الذين اودعوها اسرارهم وآمالهم وطموحاتهم. لا يدري الآخرون، حتى المقربون ماذا كان في سريرة مطلقها حرة هكذا. فهي الرسول الذي يحمل رجاءه يطلب من الخضر تحقيق مراده، أو هو يدعوه للتشفع والدعاء لقضاء حاجته. طقوس وشعيرات واجتماع عام يطول زمنه منذ غروب الشمس وحتى ساعة متأخرة من الليل من كل عام. هكذا تستمد الطقوس وجودها وتواصلها من عمق التاريخ، حيث ينشط العقل الجمعي الشعبي لاستشراف شعيرته، محولاً النهر من رمز الشهادة وحدوث الفاجعة باستشهاد الامام الحسين (ع)، إلى طقس التبرك وتقديم النذور. فكانه بجريانه المستمر، انما يحقق ازلية تأثيره في الشعوب، فهو علامة للتأصيل، تأصيل المكان بالوقائع، وتأصيلها بالتراجيديا. فالانهار سجل وتاريخ وذاكرة تزداد صفحاتها غنى بما يسطره اليراع على صفحاته. من هذا وذاك استثمرت واقعة الطف عبر كل طقوسها، سواء بالقرب من الفرات او بعيداً عنه لتعميق فكرة التضحية والبسالة التي قل مثيلها في التاريخ. فمعانيها اصبحت ازلية، وخلود الفرات ومائه كان من عمق ما خلدته الميثولوجيا، عند الشعوب. كذلك من علامات الانثروبولوجيا، حيث ابتكر الانسان سبلاً لاعتبار الماء تقدمة نفيسة يحققها ماء السبيل في كل الشوارع وانعطافاتها، تعويضاً عن عطش الحسين (ع) وآل بيته وكل العطاشى من بني البشر الذين قضوا نحبهم وفي نفوسهم رغبة وحاجة لقطرة ماء. عن هذه القدسية والتبجيل انسحبت كي تلبي حاجة البحث عن الاستقرار وابعاد القلق النفسي الذي ينتاب المرء جراء صعوبة الظرف، فقد غدا الرمز التاريخي علامة للتشفع والوساطة. والنهر في هذا ومن ثم الماء منح الذاكرة قوة الخزن والانبعاث لتحقيق المعاني والعبر والدروس البليغة من التاريخ؛ تاريخ الرموز الدينية، وتاريخ الاماكن المقدسة، والنهر واحد من تلك الرموز. والفرات حباه الله بقدسية خاصة، فلمائه قدسية، وله جذر في تاريخ الاديان والشعوب.

١-قصة الخليقة لبابلية / دار الحكمة / بغداد ٢٠٠١ ص٢١ - ٢٢,
٢-العهد القديم / سفر التكوين ١ - ٢,
٣- ٤-كنز ربا / الكنز العظيم - الكتاب المقدس للصابئة المندائيين / ص ١٩ - ٢٧٥,
٥-٦-التستري - الشيخ جعفر التستري / طبعة حجرية.
٧-القرآن الكريم / سورة الانبياء.
٨-التستري - الشيخ جعفر التستري - طبعة حجرية.
٩-آدم متسز / الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري / ط٢ / ص,٢٨٩
١٠-الصابئة المندائيين / ص,١٩٠
١١-الحضرة الاسلامي / سابق
١٢-تراجيديا كربلاء / ابراهيم الحيدري.
١٣-انسكلوبيديا دائرة المعارف / ص,٩

من المحرر

كل مواقع الآثار والتراث.. مهددة

فضلت أن يكون عنوان هذه المقالة القصيرة هكذا لإعلان الصندوق العالمي للآثار عن وضعه كل التراث المعماري والثقافي في العراق في قائمة المواقع المهددة بالخطر، وقال بوني بورنهام رئيس الصندوق "إنها المرة الأولى التي تدرج فيها مواقع دولة بالكامل في قائمة المواقع المهددة بالخطر" وأضاف بورنهام قائلاً: "كل ما هو ثقافي في العراق مهدد"، واستذكر رئيس الصندوق العالمي للآثار الكنوز الآثارية للعراق القديم "ميسوز بوتاميا" في بابل وآشور واستنكر إقامة قواعد عسكرية فوق مواقع آثارية أو بالقرب منها كما جرى في الحضر وفي بابل وعلى مقربة من آثار أور وفي داخلها، ولا نريد هنا أن نعيد ذكر فجائع نهب المتحف العراقي والمكتبة الوطنية ببغداد ولا أن ننسى جهود أبرز المثقفين العراقيين وفدائيتهم في تشكيل لجان استعادة الآثار والممتلكات الثقافية واللوحات التشكيلية، ولكننا ندعو المجتمع الدولي ومسؤولي الأسواق العالمية الخاصة ببيع التحف والآثار والكتب والمخطوطات التي حفظتها لسنوات طوال المتاحف العراقية ومراكز حفظ المخطوطات والمكتبات العامة إلى عدم السماح للصوص الثقافة العالمين باستثمار هذه الكنوز وبيعها لجهات مجهولة وأن تقوم شرطة الانتربول القسم الخاص بالآثار والثقافة بالحفاظ على هذه المعالم الثقافية المسروقة وإعادتها إلى الوطن ومعاقبة السارقين والمنتفعين من الآم العراقيين وسارقي آثارهم الثقافية.

وإذا كان الفولكلور يشكل ركناً اساسياً من الأصول الثقافية فإنه يعتني بالمعمار التقليدي وبالكتب المخطوطة التي حفظت جزءاً مهما من تاريخ الوطن الثقافي والاجتماعي، ومن هذا المنطلق ندعو إلى جمع الكنوز الثقافية العراقية وإعادتها إلى الأرض الطيبة.. أرض العراق.

باسم عبد الحميد حمودي

مواقع

مأذنة جامع الفاروق

عبد الرحمن جمعة الهيتي

ما بين وقتي الصلاة، ارتقى مأذنة جامع الفاروق الشامخة بعلوها ووقارها، ويمم وجهه قبلة المصلين، نادى بأعلى صوته:

يا قريب الفرج يا عالي بلا درج

عبدك بشدة ويطلب منك الفرج كلمات لم نك نسمعها.. ولم تك مألوفة من قبل. امرأة تعسرت وتضورت ألماً في مخاضها ليلتين متتاليتين. كان البكر ولداً، بعدما طش نبأ عسرة المرأة الحامل، قال الصبية منها يؤذن خمسة أوقات الصلاة. ويمجد في يوم عطلة المسلمين ومنها يرى ولادة الأشهر الحرم.. وأهلة رمضان والعيدين.. ومنها يسلم على شموس الأيام في غيوبها.

وسأل الصبية ابمثل هذا يعلن في المأذنة التي يشق حيزومها الفضاء؟ قالوا نعم: ومنها تسر الناس برؤية حجاج بيت الله وهم يطلون على مشارف المدينة حينما كان الجمل راحلة الإنسان. ومنها يوصل الضوء بسرعته الفائقة وقتي المغرب والعشاء إلى سناجق هيت، ورصد السفن المنحدرة نحو الجنوب والقادمة إلى هيت، وهي مكان رصد هجمات المغول والقرامطة في غابر الزمن.

ويوما جاء هيت سياح إنكليز.. تفرجوا على دلاء الماء ونواعيرها وتمعنوا في مغاليق الأبواب ونقوشها.. ووقفوا تحت مأذنة الفاروق ذات المئة والخمس عتبات والمبنية بالجص المحروق (باوتين) هيت، مادين رؤوسهم صوب اكليلها الخشبي. وحال بينهم وبين المأذنة (منصور ساجر) ورطن وإياهم بإنكليزية تخللتها عربية نحوية. قال المارة: ماذا قلت لهم يا أبا علي؟ قال: قلت لهم ارايتم هذا الكف المحفور في جسد المأذنة هذه.. اشاروا برؤوسهم علامة الجواب.. بنعم.. قلت لهم: إنها كف سيدنا علي (عليه السلام).. كادت تهوي يوما ما، فاسندها كف علي (ع) ووقاها من السقوط، وأردف قائلا: فانا لبعضنا نتألم لإخواننا ونسر بسرور كل أهل العراق.

ستديو ثقافة شعبية

جسر مود -بغداد

الجسر القديم -بغداد

مكتبة

صناعة آلة الناي في العراق

تأليف: آمال إبراهيم محمد

يرتبط اسم (القصب) بآلة الناي الموسيقية ارتباطاً كبيراً لأنه مادة صناعته الأساسية وقد اعتمدت المؤلفة في مادتها على آراء المتخصصين من الصناع والعازفين لتحديد نوعيات القصب الصالح لانتاج الآلة ثم دونت تفصيلات صناعة الناي وأنواع الصانعين وطرق الإنتاج والبيع بحيث غدا الكتاب مادة ميدانية تفصيلية في هذه الصناعة الموسيقية.

إصدار دار الشؤون الثقافية - بغداد ٢٠٠٠

رمز الأفعى في التراث العربي

د. ثناء أنس الوجود

دراسة فولكلورية تاريخية عن الأفعى رمزاً وقد انطلقت الباحثة في دراستها من مقولتين، الأولى أن الأفعى تشكل في خيال الإنسان القديم والحديث مساحة لا يمكن تجاهلها، والأخرى أن العلاقة بين الإنسان والأفعى علاقة دينامية متحركة لم تثبت على حال، وقد حللت المؤلفة النصوص الدينية والفولكلورية الخاصة بالأفعى والمعتقدات السارية حولها، من فصول الكتاب: الأفعى منبوذة - الأفعى حارسة - الأفعى الشريرة - الأفعى بين الخير والشر - الأفعى بين الشعيرة والواقع.

إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - ١٩٩٩ ط٢

صور بغدادية

تأليف: كمال لطيف سالم

كتاب تعريفي مصور باهم المظاهر الاجتماعية والصناعات الشعبية في بغداد القديمة والمعاصرة ومنها: وسائط النقل - الشرائع - الباعة المتجولون - البيت البغدادي - محلات بغداد - جسور بغداد - نداءات الباعة - مساجد بغداد - ساعة القشلة - العباءات - الحلاق ايام زمان - الأكلات البغدادية وغيرها.

بغداد - ١٩٨٥